وإحساسه وعقله وتفكيره حتى تتآلف الأبيات ، وتقع القوافي مواقعها من المعانى متمكنة بلا تكلف، وفى ذلك يقول ابن طباطبا: «فإذا كَمُلَت له المعاني، وكثرت الأبيات، وفَّق بينها بأبيات تكون نظامًا لها ، وسلكا جامعًا لما تشتت منها، ثم يتأمل ما قد أداه إليها طبعه، ... ويرم ما وَهَى منه، ويبْدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية، وإذا اتفقت له قافية قد شغلها فى معنى من المعاني، واتفق له معنى آخر مضاد للمعنى الأول، وكانت تلك القافية أوقع فى المعنى الثانى منها فى المعنى الأول نقلها إلى المعنى المختار الذى هو أحسن، وأبطل ذلك البيت أو نقض بعضه وطلب لمعناه قافية تشاكله...» (العيار٨).

فتلك مراحل ثلاث فى بناء القصيدة: فكرة، وصياغة ، وتثقيف ، وقد جعلها ابن طباطبا مراحل متتابعة أحيانًا ومتداخلة أخرى.

الموضوع الثالث: أقسام الشعر:

جرى ابن طباطبا على إجمال الرأى ثم تفصيله والتمثيل له، إلا أنه فى كثير مما فصله لم يلتزم التأليف بين العناصر المتشابهة متتابعة وفق تتابعها فيما أجمله، وقد ترتب على هذا توزع العنصر الواحد فى مواضع كثيرة متباعدة، الأمر الذى فرض علينا جمع ما تفرق لتنتظم العناصر فى موضوعات متجانسة مع مفردات كل منها.

١- أشعار محكمة، وصفها بقوله:

«فمن الأشعار المحكمة المتقنة المستوفاة المعاني، الحسنة الوصف ، السلسة الألفاظ التى قد خرجت خروج النثر سهولة وانتظامًا، فلا استكراه فى قوافيها، ولا تكلف فى معانيها، ولا عِيّ لأصحابها فيها ... فهذه الأشعار وما شاكلها من أشعار القدماء والمحدثين، أصحاب البدائع والمعانى اللطيفة الدقيقة - تجب روايتها والتكثُّر لحفظها» (العيار١١٠) ويمثل لهذا القسم بأشعار خَلَت من نقده أو أى ذكر لمواضع الحسن فيها، دلالة على امتلائه بمحاسنها التى جمعها فى وصفه الشعر المحكم، لذا جعلها نماذج مثلى تروى وتحفظ.

وقد عمد ابن طباطبا إلى إطالة الاختيار حتى يفسح لعناصر الشعر المحكم أن تظهر على كثرتها وانتشارها فى القصيدة لا الأبيات والقِطَع، وهذا منه سديد فى الحكم على الشاعر ونقد شعره .

كما لم يقصر اختياره على القدماء الذين جعلهم قدوة لمن رام القريض من المحدثين، فهؤلاء وهؤلاء فى عيار الشعر سواء، إلا أن أشعار القدماء أغلب وأكثر لاستحواذها على المعايير النقدية عند ابن طباطبا ، فلا نعثر من شعر المحدثين إلا على قصيدة لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى الذ وصفه ابن المعتز بأنه «لا يشبه شعر المحدثين الحضريين، وكان نمطه نمط الأعراب، وهو أحد من نسج شعره بماء الذهب»(١).

٢ـ أشعار غَثَّة ، وصفها بقوله:

«الغثة الألفاظ ، الباردة المعاني، المتكلفة النسج، القلقة القوافي، المضادة للأشعار التى قدمنها » (العيار ١١٠).

ثم تمثّل بقصيدة الأعشى التى أولها:

بانت سعاد وأمسى حبلُها انقطعا واحْتَلَّت الغَمْر فالجُدَّين فالفَرعَا

وسرد ها كاملة على طولها، ونبه على أنها ستة وسبعون بيتًا لم تسلم من التكلف فيها إلا ستة أبيات وفيها خلل ظاهر، ولكنها بالإضافة إلى سائر الأبيات نقية بعيدة من التكلف، وقد استل ابن طباطبا هذه الأبيات من القصيدة، وأثبتها دون نقد يميزها عن غيرها.

وإن هذا الحكم النقدى من التعميم والإبهام إلى حد يصعب معه تحديد مفهوم «التكلف» الذى وصف به ابن طباطبا قصيدة الأعشى، وكذا برودة المعاني، وغثاثة الألفاظ.

وبتأمل أبيات القصيدة فى ألفاظها ومعانيها وقوافيها، ومقابلتها بستة

---

(١) طبقات الشعراء: ٢٧٥.

الأبيات التى رضى عنها ابن طباطبا، نستطيع الوقوع على بعض القوافى القلقة.

فى مثل قوله:

بانت وقد أسْأرَتْ فى النفس حاجتها بعد ائتلاف، وخير الوُدِّ ما نفعا

فالقافية فى «نفعا» مجلوبة باصطناع عبارة «خير الود» قبلها، على خلاف ما يستدعيه معنى البيت المعبر عما خلفته المحبوبة النائية من حسرات وآلام وذكريات تبعث الأسى فى النفس.

أما تكلف النسخ ، وبرودة المعنى فنجدهما عند التفتيش فى قوله:

وكان شيء إلى شيء فغيَّره دهرٌ يَعُود على تشتيت ما جمعا

فقوله: (شيء إلى شيء) للتعبير عما يجتمع عليه الحبيبان، أوعن الحبيبين كليهما ـ غثّ الألفاظ بارد المعنى لا يناسب المقام، وفى القصيدة غير ذلك كثير.

ثم وازن ابن طباطبا بين أبيات للأعشى فى المدح، وبين أبيات لأحمد بن أبى طاهر وهو محدث (ت٢٨٠هـ) ، ورفع أبيات ابن أبى طاهر على حداثته، وفى ذلك يقول: «فهذا من الشعر الصَّفْو الذى لا كَدَر فيه، وأكثر من يستحسن الشعر على حسب شهرة الشاعر وتقدم زمانه، وإلا فهذا الشعر أولى بالاستحسان والاستجابة من كل شعر تقدم» العيار(١٢٣).

وإن هذا الاعتدال فى النقد يبعث الثقة فيما يعنيه ابن طباطبا بالأشعار الغثة بنفيه التعصب للقديم لتقدم زمانه، كما يؤكد على نظره إلى الشعر بعيدًا عن الأحكام المتواترة فى حق الشاعر تلك التى تحجب أحيانًا المآخذ الموضوعية ، وتضيع على الشعراء ثمار النقد سواء بالتوجيه أو التسجيل.

٣ ـ شعر أغرق قائلوه فى معانيه، أو زاد فيه العقل على القريحة:

والقريحة هى طبيعة الإنسان التى جبل عليها، وجوهدرها الصافى غير المَشُوب، ومنه قولهم: لفلان قريحة جيدة، يراد استنباط العلم بجودة الطبع والقريحة والقُرْح أول ما يخرج من البئر حين تُحفر.

ومن النماذج المختارة فى عيار الشعر يظهر لنا مقصد ابن طباطبا من الأبيات التى أغرق قائلوها فى معانيها، بأنه ينظر إلى المبالغة فى المعاني، وبلوغها غايات يتوصل إليها الشاعر بإعمال عقله وفكره أكثر مما تتهدى إليه قريحته فى فيضها على سجيتها، وهو عمل فيه صنعة وإحكام وتدبر الصياغة حتى تبلغ غايتها.

ومما تمثل به فى ذلك قول الفرزدق يمدح الوليد بن عبد الملك :

وقد خفْتُ حتى لو أرى الموت مقبلا ... ليأخُذَنى والموت يُكره زائره
لكانَ من الحَجَّاج أهْوَنَ روعةً ... إذا هو أغْفى وهو سامٍ نواظره

ثم علق على البيتين بقوله: «فانظر إلى لطفه فى قوله: (إذا هو أغفى) ليكون أشد مبالغة فى الوصف إذا وصفه عند إغفائه بالموت، فما ظنك به ناظرًا متأملا متيقظًا، ثم نَزَّهه عن الإغفاء فقال: وهو سام نواظره» (العيار٨٠)، وهذا ما ورد مفصلاً فى أبواب المبالغة والغلو والإيغال فى مباحث البلاغيين القدماء والعصريين، على تفاوت بينها فى تعلق العبارة بالقافية أو الإفراط والتطرف[١].

وما يؤكد هذا المقصد لابن طباطبا تصريحه بأن جماعة من الشعراء المحدثين سلكوا سبيل الأوائل فى المعانى التى أغرقوا فيها فقال أبو نواس (ت١٩٥هـ) يمدح الرشيد:

---

(١) انظر: أبا طاهر البغدادى : قانون البلاغة ٩٦-١٠٠.

وأَخَفْتَ أهلَ الشِّرك حتى إنه لتخافك النُّطَفُ التى لم تُخْلَقِ

وقال بكر بن النّطَّاح (ت١٩٢هـ) يمدح أبا دُلَف العجلي:

لَوْصَالَ من غضبٍ أبو دُلَفٍ على بِيض السيوف لَذُبْن فى الأغماد

(العيار٨١)

٤. شعر زادت فيه القريحة على العقول:

وهذا نوع عكس سابقه من ناحية ترك القريحة تَهْمى دون سيطرة القوة العقلية على شططها، أو تهذيب استغراقها فيما ملك عليها انثيالها. مثال ذلك عند ابن طباطبا قول كثير (ت١٠٥هـ):

ألا ليتا - يا عزُّ - من غير ريبة بعيران نرعى فى الخَلاء ونَعْزُب
كلانا به عُرٌّ فمن يرنا يقل على حُسْنها جرباء تُعْدى وأجرب
نكون لذى مال كثير مغفّل فلا هو يرعانا ولا نحن نُطْلَب
إذا ما وَرَدْنا منهلا صاح أهله إلينا فلا ننفك نُرْمَى ونُضْرب
وَددْتُ - وبيت الله - أنك بَكْرةٌ هجَانٌ وأنى مصعبٌ ثم نَهْرَب

فقالت له عَزَّة : لقد أردتَ بى الشقاء الطويل، ومن المنية ما هو أوطأ من هذه الحالة » (العيار١٥٢).

وقول جُنادة بن نَجَبَة:

من حُبها أتمنى أن يُلاقَيني من نحو بلدتها نَاعٍ فينعاها
لكى أقول: فراقٌ لا لقاء له أو تضمنَ النفس يأساً ثم تَسْلاها

(العيار١٥٨)

فكلا الشاعرين أفرط إفراطًا معيبًا فى تصوير حبه وتعلقه بمحبوبته، حتى أطلق العنان لعاطفته وقريحته الشاعرة للتعبير عن مدى الاستئثار بمن أحبها وخوفه من فقدها، فأحال الحب إضرارًا وإهلاكًا ، وأخرج الصورة من حد

القبول والإعجاب إلى البغض والنفور، ولو أنه أعمل العقل وحكَّمه فيما استغرق قريحته، لجنّب شعره السّخف، وبرئ من الاشمئزاز.

٥- شعر حسن المعانى وَاهى الألفاظ رث الصياغة:

ينظر ابن طباطبا إلى التناسب بين اللفظ والمعنى ، فلا تسمو المعانى وتقصر الألفاظ عن الوفاء بمضامينها، ولا تعظم الألفاظ فى دلالتها وتتضاءل المعانى فى بروزها على الهيئة التى تستحقها.

يقول ابن طباطبا فى مقام المعنى الحسن الواهى اللفظ: «ومن الحكم العجيبة، والمعانى الصحيحة ، الرثة الكُسْوة، التى لم يُتَنَوّق فى معرضها الذى أبرزت فيه قول القائل [وهو صالح بن عبد القدوس].

نُراعُ إذا الجنائز قابلتنا ... ونسكُن حين تمضى ذاهبات
كروعة ثُلَّةٍ لمُغار ذئبٍ ... فلما غاب عادَتْ راتعات

(العيار١٤٣)

ولم يفصح ابن طباطبا عما قصرت فيه الألفاظ بالمعنى فى البيتين، وأحسبه ينظر إلى معنى الموت وما فيه من عِبرة تبرزها الجنائز للعيان وغفلة عن الاتعاظ بهذا المعنى بعد غياب الجنازة عن أنظارهم ، وما يستدعيه هذا المعنى من صياغة تناسبه، وألفاظ تثيره فى النفوس، ولعله أخذ على الشاعر التعبير بلفظة «نسكن) مقابل (نراع) وكان الأجدر قوله (نلهو أو نغفل) لتتم المقابلة المثيرة للتأمل. فضلاً عن عدم التوفيق فى التشبيه للمفارقة الواضحة بين إقبال الجنازة وإغارة الذئب، ففى الجنازة قضاء محتوم، وفى الإغارة غدر وافتراس.

فهو يرى أن بعض المعانى لم تبرز فى معارض مناسبة لها، ولم تحظ بالصياغة الملائمة لسموها وامتلائها بالقيم والمثل والعبر، مما يترتب عليه ضعف أثرها فى النفوس، وانحسارها عن الفيض بما تميزت به فى صياغة على وفقها،

وهو ما عناه ابن طباطبا بقوله (لم يُتَنَوَّقْ فى معرضها الذى أُبرزت فيه) والتَّنوُّق فى الأمر هو التأنق فيه وإجادته، أى التأنق فى الألفاظ والصياغة التى تعرض فيها لامعانى .

ويمثل ابن طباطبا لعدم اتساق الألفاظ ـ على جودتها ـ مع المعانى التى لا تشاكلها أو تناسبها بقول كثير:

فقلت لها: يا عزُّ كل مصيبة إذا وُطِّنت لها النفس ذَلَّتِ

ثم يعلق فيقول: «وقد قالت العلماء: لو أن كثيراً جعل هذا البيت فى وصف حرب لكان أشعر الناس» (العيار١٤٣).

ويقول القُطامى فى وصف النُّوق:

يَمْشِين رَهْوا فلا الأَعْجَازُ خاذِلةٌ ولا الصُّدور على الأعجاز تَتَّكِل

ثم يعلق قائلاً: لو جعل هذا الوصف للنساء دون النوق كان أحسن».

(العيار١٤٣)

ويقول كثير:

أَسِيئى بنا أو أَحْسِنى لا مَلومةً إلينا ولا مقليةً إن تَقَلَّتِ

ويقول: «قالت العلماء: لو قال هذا البيت فى وصف الدنيا لكن أشعر الناس» (العيار١٤٤).

وهذا من إساءة اختيار الألفاظ وصياغتها بما يتوافق مع المعانى المرغوب إظهارها، وهو ما يظهر فى غزل كثير ووصف القُطامى للنّوق.

فالمعنى فى بيتى كثير يصور شدة تعلق الشاعر بمحبوبته وإن أصابه منها ما يُعَنّيه ويؤذيه، إلا أن الألفاظ وصياغتها أخرجتا هذا المعنى من نطاق الحب

والغزل إلى البلاء والعَنَت اللذين يلاقيهما المرء فى الحرب وشقاء الدنيا. وكذا بيت القطامى الذى قصد تصوير النوق فى سيرها سهلة مناسبة فخرج إلى ما توصف به النساء أو يقاربه.

والخلاصة أن اللفظ يَندّ أحيانًا عن الوفاء بالمعنى، أو يقع على مالا يشاكله من المعانى فيحيلها فى نفوسنا صوراً لم يقصدها الشاعر.

٦- شعر حسن الألفاظ واهى المعاني:

وهذا النوع من الشعر عكس السابق، وفيه يقول ابن طباطبا: «ومن الأبيات الحسنة الألفاظ، المستعذبة الرائقة سماعًا، الواهية تحصيلاً ومعنى، وإنما تستحسن منها اتفاق الحالات التى وضعت فيها، وتذكر اللذات فيها، والعبارة عما كان فى الضمير منها، وحكايات ما جرى من حقائقها دون نسج الشعر وجودته، وإحكام رَصْفِه، وإتقان معناه- قول جميل:

فيا حُسْنَها إذ يغسل الدمع كُحلها ... وإذ هى تُذْرى الدّمع منها الأناملُ
عَشِيّةَ قالت فى العتاب : قَتَلْتَنِي ... وقَتْلى بما قالت هناك تحاول

وكقول قيس بن ذَرِيح :

خليليّ، هذى زفرة قد غلَبْتُها ... فمن لى بأخرى مثلها قد أطَلَّتِ
وبى زَفَرات لو يَدُمْن قَتَلْننى ... تسُوق التى تأتى التى قد تَوَلّتِ

وكقول عمر بن أبى ربيعة :

غَفَلْن عن الليل حتى بَدَا ... تباشيرُ من واضحٍ أسْفَرا
فَقُمْن يُعَفِّينَ آثارَنَا ... بأكْسِيَةِ الخَزِّ أنْ تُقْفَرا

فالمستحسن من هذه الآبيات حقائق معانيها الواقعة لأصحابها الواصفين لها دون صنعة الشعر وإحكامه». (العيار ١٣٦ ـ ١٣٧).

يقرر ابن طباطبا فى هذا الشعر أمورا:

(أ) قد يروقنا الشعر فى ألفاظه المستعذبة على السمع، ثم لا نَجْنى منه معنى يُعْتَد به على المعهود فى الشعر.

(ب) للشعر نسج متميز، وصنعة تتألق فيها المعانى وفق إجادتها وإحكامها.

(جـ) إن ما يمتعنا أحياناً فى الشعر ليست صنعته المحكمة، ونصاعة معانيه فى رحاب الصياغة المتقنة، بل هى أمور نفسية تصرفنا عن الأصل المقصود بالتأمل فى الصنعة والصياغة، وهذه الأمور محققة فى أربع حالات :

الأولى: اتفاق ما وضع فيه الشعر مع حالة السامع. **والثانية:** تذكر اللذات التى تثيرها معانى الشعر. **والثالثة:** تعبير الشعر عما يختلج فى النفس وتحفظه الضمائر فيجسده الشعر للسامع. **والرابعة:** الإعجاب بالمعانى المحكية فى ذاتها لا فى صناعتها الشعرية المحكمة النسخ.

فهذا الشعرعند ابن طباطبا يبعث على الإعجاب لمعانيه المجردة من مقومات الصياغة الشعرية، وإحكام صنعة القريض، ثم تكون لحالة السامع أثرها فى إغفال هذه المقومات والاستغراق فيما يوافق هوى النفس وإرهاصاتها، واستشراف الحقائق المحكية.

وبالتأمل النقدى فى النماذج التى اختارها ابن طباطبا نجد بيتى كثيِر يجمعان ألفاظا عذبة رائقة، سائغة فى مقام الغزل نحو: ياحسنها، يغسل الدمع كحلها، تُذْرِى الدمعَ الأناملُ، أما حاصل معنى البيتين فينحصر فى حزن عزة وبكائها على ما أصابها من ظلم حبيبها الذى يرى شكواها قاتلته. فالألفاظ راجحة

برّاقة، تطرب السامع وتسعده بما تثيره من ذكريات، أو تلفته إلى ما فى ضميره وتحكيه، أما المعنى فلم يخرج عن المألوف، ولم يبرأ من السطحية التى لا يرضى بها النقاد فى بحثهم عن المخترع المبتكر، أو الناصع الملفت.

وكذلك نرى بيتى ابن ذَرِيح زاخرين بالألفاظ الرائقة فى سياقها الغزلى نحو: زفرة قد غلبتها، زفرات لو يدمن قتلنني، ثم لا نعثر فى البيتين إلا على زفرات متتابعة يحاول مغالبتها فتغلبه. فطنين الألفاظ أرجح وأغلب من ضحالة المعانى وبساطة عرضها فى غير ما تقتضيه صنعة الشعر.

والأمر نفسه فى بيتى ابن أبى ربيعة، فى ألفاظهما ومعانيهما.

٧ـ شعرحسن الألفاظ والمعانى :

وهذا النوع من الشعر يوقفنا على النموذج الذى يرتضيه ابن طباطبا وقد وصفه بقوله: «فأما المعنى الصحيح، البارع الحُسْن، الذى أُبرز فى أحسن مَعْرَض، وأبهى كُسْوة، وأرق لفظ، فقول مسلم بن الوليد الأنصاري:

وإنى وإسماعيل بعد فراقه ... لكما لغمد يوم الرَّوْع زايله النَّصْل
فإن أغْشَ قوما بَعده أو أزُرْهُمُ ... فكالوحش يدنيها من الأنسِ المَحْل»

(العيار ١٤٧)

وإسماعيل هذا من أبناء خالد البرمكى على ما ذكره الجاحظ فى البيان والتبيين، وفى رواية البيتين خلاف بسيط[١] .

والصورة فى شعر مسلم محكمة الصنعة بإتقان التشبيه فى البيتين، مع طرافة المعنى، وتلاحم أجزائه، وتناسب ألفاظه.

وإن إغرام ابن طباطبا بالتشبيه، ووقوفه طويلا عند أنواعه فى تصنيفه، يفسر

(١) انظر البيان والتبيين ٤ / ٤٨ .

إعجابه بهذا النوع من الشعر الذى لا يفارق التشبيه بيتا منه. فإسماعيل فى مفارقته صاحبه الشاعر كالنَّصل المفارق غمده اضطرارا يوم الروع. والشاعر وقد أحس الوحشة بمفارقة صاحبه، يدفعه الاضطرار إلى التأنس بغيره، كالوحش يجبره الجدب على ارتياد ما لم يألفه فى الأماكن المأنوسة على غير عادته. فهاتان صورتان متتابعتان فى معنى فقدان الصديق وتفقده عند غيبته، وهما كذلك مبتكرتان.

ويؤكد هذا التفسير إرداف ابن طباطبا كلامه فى بيتى مسلم بن الوليد بالتشبيهات البعيدة التى لم يَلْطُف أصحابها فيها، ولم يخرج كلامهم فى العبارة عنها سهلاً (العيار ١٤٧). وهو إرداف مقصود للمقابلة بين الحسن والقبيح، فبأضدادها تميز الأشياء، وهو ما دعاه إلى التمثيل لذلك بقول خُفَاف بن نَدْبَة :

أبقى لها التَّعْداء من عَتَدَاتها ومتونها كخُيوطة الكَتَّان

والعَتَدَات: القوائم، والمتون: الظهور والضّلوع. أراد أن قوائمها ومتونها دَقَّت حتى عادت كأنها الخيوط. وهذا بعيد جدا، وهو من باب الغلو(١).

وقول ساعدة بن جُؤَيَّة :

كساها رَطِيب الريش فاعتدلت لها قِداحٌ كأعناق الظباء زَفَازِف

شبه السهام بأعناق الظباء، وليس بينهما شبه، ولو وصفها بالدقة كان أولى(٢).

فنقد ابن طباطبا آخذ فى طريق التشبيه الذى تتألق به المعاني، وتقع فيه الألفاظ مواقع متوافقة مع الصورة المرجوة بلا غلو أو غموض وإبعاد فى التعبير.

---

(١) انظر العيار ١٤٨، والصناعتين ٢٥٧ .

(٢) انظر العيار ١٥٠ ـ ١٥١، والصناعتين ٢٥٧ .

ولا يخلوا اختيار ابن طباطبا للشعر الحسن الألفاظ والمعانى من اقتناع ببراعة المحدثين فى التشبيه، إذ قدم مسلم بن الوليد على خُفَاف بن نَدْبَة وساعدة بن جُؤَيّة، وهما معدودان من الجاهليين وإن أدركا الإسلام.

٨ـ شعر قصر فيه أصحابه عن الغايات :

يقصد ابن طباطبا ما وقع فيه الشعراء من أخطاء أساءت إلى مقاصدهم وقعدت بهم عن الغايات بسبب لفظ أسند لغير مستحقه، أو وصف لا يليق بموصوفه، أو تناقض يصيب المعنى لوهم من الشاعر، أو قصور فى التعبير يخل بالمعاني. وفى ذلك يقول صاحب العيار: «ومن الأبيات التى قصر فيها أصحابها عن الغايات التى أُجْرُوا إليها، ولم يسدوا الخلل الواقع فيها معنى ولفظاً قول امرىء القيس :

فللساق أُلْهُوب وللسّوط درَّةٌ ولِلزجر منه وقْعُ أَخْرجَ مُهْذِب

فقيل له: إن فرسا يحتاج إلى أن يُستعان عليه بهذه الأشياء لغيرجواد وقول المُسَيَّب بن عَلَس :

وقد أتناسى الهَمّ عند احتضاره بِنَاجٍ عليه الصَّيْعَرِيَّةُ مُكْدَم

فسمعه طرفة فقال: اسْتَنْوَقَ الجمل !

وقول الشَّماخ :

فنعم المُعْتَرَى رحلت إليه رَحَى حَيْزُومها كرحَى الطَّحِين

إنما توصف النجائب بِصِغر الكَرَكَرة ولُطف الخفّ. (العيار ١٥٨ ـ ١٥٩).

وهذه أخطاء أصابت المعانى لجهل الشاعر بالحقيقة أو لوهمه وعدم بصره باللغة. وقد جمعها المرزبانى (ت ٣٨٤) فى كتابه «الموشح» وتوسع فيها حتى

شملت السقطات الأسلوبية واللغوية والنحوية والعروضية مما أورده العلماء فى هذا الشأن، ولامراء فى إسهام ابن طباطبا فى التطريق لعمل المرزبانى وغيره كأبى هلال العسكرى (ت ٣٩٥هـ) فى الصناعتين وابن رشيق (ت ٤٦٣ هـ) فى العمدة، وكثيرين من المتأخرين. وهذا فضل السبق فى عيار الشعر.

ولم يقف ابن طباطبا عند رصد الأخطاء أو حكايتها عن غيره كما فعل المرزبانى فى أغلب ما أورده بكتابه «الموشح»، بل رصد الخطأ، وشرحه، وصححه، وقرنه بالصحيح المختار فى بابه. مثال ذلك وقوفه عند قول النابغة الذبياني:

ماضى الجَنَان أخى صَبْر إذا نَزَلَتْ حربٌ يُوَائِل منها كلُّ تِنْبَال

ثم قال: «التِّنْبال: القصير، فإن كان كذلك فكيف صار القصير أولى بطلب الموئل من الطويل؟ وإنْ جَعل التِّنبال الجبان فهو أعيب لأن الجبان خائف وَجِل، اشتدت الحرب أم سكنت. وأين كان عن مثل قول الهمدانى :

يَكرُّ على المُصَافِ إذا تَعَادى من الأهوال شجعان الرجال

(العيار ١٦٦)

وهذا يكسب ابن طباطبا صفة الأصالة فى تصنيفه، والريادة للنقاد الذين تبعوه على ما سيرد مفصلاً.

٩ ـ الأبيات المستكرهة الألفاظ، القلقة القوافى :

جمع ابن طباطبا الألفاظ المستكرهة مع القوافى القلقة فى إطار واحد بجامع ما يصيب البيت من انحلال معاقده. وتفكك أوصاله لوقوع هذه الألفاظ والقوافى شاذة نافرة. فيقول: «ومن الأبيات المستكرة الألفاظ، القلقة القوافي، الرديئة النسج، فليست تسلم من عيب يلحقها فى حشوها أو قوافيها، وألفاظها،

أو معانيها ـ قول أبى العيال الهُذَلى :

ذكـــرتُ أخـــى فَـــعَـــاوَدَنـــي صـــداع الـــرأس والـــوَصَـــبِ

فذكر «الرأس» مع «الصداع» فضل.

وقول أوس :

وهـم لـمُـقِـل المـال أولادُ عَـلَّـةٍ وإن كان مَحْضًا فى الـعُمومة مُخْوِلاَ

فقوله: «المال» مع «مُقِل» فضْل. (العيار ١٦٨ ـ ١٦٩).

وهذا من الحشو عند البلاغيين، وفيه يقول العَتَّابي:

إن حَـشْـو الـكـلام مـن لُـكْـنَـة المر ء وإيـــجـــازه مـــن الـــتَّـــقْـــويم

والمقصود هـو الحشو الذى لو أسقط من الـكلام لم يختل لعدم الحـاجة إليه. وعَدَّه قدامة بن جعفر من عيوب ائتلاف اللفظ والوزن[1] .

أما الـقافية الـقلقـة فإنها تـقحم فـى البيت بـلا فائدة إلا لـلاطراد الملتـزم فى القصيـدة، لتكون نظيرة لأخـواتها فى السجع لا لأن لـها فائدة فى معنـى البيت بالإكمال أو الزيادة، وعَدَّها قدامة من عيوب ائتلاف المعنى والقافية[2].

ومثل ابن طباطبا لتلك القافية بقول الحُطيئة :

ألاحـبـذا هـنـدٌ وأرضٌ بـهـا هـنـدُ وهـنـدٌ أتى مـن دونهـا النّـأىُ والبُـعْد

ثم قال: «فقوله: (النّأى) مع ذكر (البُعد) فضل» وهو من التطويل.

أما إذا اعـتبـر ذكر (البُـعد) مـع ذكر (النـأى) زيادة كـما ذكر المـرزبانـى فى

(١) انظر: قدامة: نقد الشعر ٢٠٦، بدوى طبانة: معجم البلاغة العربية ١/ ٢٠١ .

(٢) انظر: قدامة: نقد الشعر ٢١٠ .

الموشح[1]، فتكون من القوافى القلقة لعدم إفادتها معنى بعد ذكر النأى.

ومَثَّل أيضا بقول الأعشى :

فَرَمَيْتُ غَفْلَةَ عينه عن شاته فأصبتُ حَبَّة قلبها وطِحَالها

فكلمة (طحالها) أفسدت المعنى، لأن الحب يصيب القلب لا الطحال وهو ما جرى عليه الشعراء حتى صار من سننهم.

وقول المُزَرِّد أخى الشَّمَّاخ :

فما بَرِح الولدان حتى رأيتُه على البَكْر يَمْرِيه بساقٍ وحافِر

يريد بساق وقدم. فأطلق الحافِر على القدم وهو خطأ فى اللغة.

وقول المتلمِّس :

من القاصرات سُجُوف الحِجَا لِ لم تَر شمساً ولا زَمْهريرا

أراد: لم تر شمسا ولا قمرا، أو لم يصبها حر ولا برد.

وجملة القول أن ابن طباطبا نبه على ما يقع فى الشعر زائداً مجافياً للمعنى فيحط منه، أو زائداً بلا استدعاء فيقطع السياق ويوهم بالإفادة، أو فاسداً اضطرت إليه قريحة الشاعر عند عجزها عن إقامة الوزن بما يلتئم مع المعنى. وقد جمع إلى قلق القوافى حشو الكلام وفضوله.

ثم أتبع القوافى القلقة بأضدادها المتمكنة التى قال فيها الجاحظ :

«وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعتَ صدره عرفتَ قافيته»[2]. فيُجْمل ابن طباطبا الكلام

---

(١) الموشح: ٩١ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ١١٦ .

معتمدا على ما فصله فيما سبق فى القوافى القلقة فيقول: «ومن القوافى الواقعة فى مواضعها، المتمكنة فى مواقعها... قول النابغة [يصف المتجردة]:

تَجْلو بقادِمَتَيْ حمامة أيْكَةٍ ... بَرَدًا أُسِفَّ لِثَاتُه بالإثْمِد
كالأقْحُوان غداةَ غبٍّ سمائه ... جَفَّت أعاليه وأسفلُه نَدِي
زعم الهُمَام بأن فاها بارِدٌ ... عذْبٌ إذا ما ذُقْتَه قلت: أزْدَد
زعم الهُمامُ، ولم أذقْه، أنه ... يُرْوَى بريقتها من العطش الصَّدِى

فقوله: «وأسفله ندِى» و«من العطش الصَّدِى» وقعا موقعين عجيبين» (العيار ١٧٤ ـ ١٧٥).

فمعنى البيتين يتطلبهما ويَتَشَوَّفهما، وكأنهما الشيء الموعود به الذى يترقبه ما سبقه ليستقر مكتملا، فالارتباط وثيق بين القافيتين وما سبقهما فى البيتين.

ويطيل ابن طباطبا التمثيل للقوافى المتمكنة فى مواقعها من شعر القدماء، ثم يذكر اقتداء المحدثين بها، فيقول: «فهذه أمثلة قد احتذى عليها المحدثون من الشعراء، وسلكوا منهاج من تقدمهم فيها، وأبدعوا فى أشياء منها ستعثر بها فى أشعارهم كقول أبى عيينة المهلبى:

دنيا دعوتُك مُسْمِعًا فأجيبي ... وبما اصطفيتُك للهوى فأثيبي
دُومى أدُمْ لك بالوفاء على الصَّفَا ... إنى بعهدك واثقٌ فشقى بي

فقوله: «فشقى بي» لطيفة جدا، فيُسْتَدل بها على حِذق قائلها بنسج الشعر» (العيار ١٨٣).

وإن ما ذكره ليؤكد سيطرة النموذج الشعرى القديم على عياره، واعتباره المثل الذى احتذاه المحدثون وكان لهم فى ذلك إبداع وتألق.

١٠ ـ الأبيات المُسْتَكْرَهَة الألفاظ المتفاوتة النسج :

فرق ابن طباطبا بين نوعين من الألفاظ المستكرهة، الأول هو الذى لا يفيد معنى جديدا كالحشو والتطويل، أو لا يستدعيه معنى البيت فيقع فى القافية قلقا، وهذا النوع ينحصر فى زيادته المستكرهة فى حشو البيت أو قافيته وقد عرضنا ذلك فيما سبق.

أما النوع الثانى من تلك الألفاظ فيقول فيها ابن طباطبا: «فأما الأبيات المستكرهة الألفاظ المتفاوتة النسج، القبيحة العبارة التى يجب الاحتراز من مثلها فكقول الأعشى :

أفى الطَّوْف خِفْتِ علىَّ الرَّدَى وكم من رَدٍ أهلَه لم يَرِمْ

يريد : لم يَرِمْ أَهْلَه» (العيار ٦٧).

ويظهر من هذا النقد أن ابن طباطبا يقصد حسن تأليف العبارة بما يزيدها وضوحاً، وينأى بها عن الغموض والتعمية، يعنى حسن الرَّصْف بوضع الألفاظ مواضعها، وتمكنها فى أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلا حذفاً لا يُفسد الكلام، ولا يُعَمِّى المعنى، وتضم كل لفظة منها إلى شكلها، وتضاف إلى لفقها. وهذا ما فصله أبو هلال العسكرى فى كتابه «الصناعتين»(١).

ومما يؤكد هذا المقصد البلاغى ويوضحه اختيار ابن طباطبا قول عُرْوَة بن أُذَيْنَة :

واسْقِ العدو بكأسه واعْلَمْ له بالغَيْب أنْ قد كان قبلُ سَقَاكَها

واجْزِ الكرامةَ من ترى أن لو له يوما بذلتَ كرامةً لجزاكا

ثم ينقده بقوله: «فقوله فى البيت الأول: (واعلمْ له الغيب) كلام غَثّ، و(له)

(١) الصناعتين ١٦١ ـ ١٧٢ .

رديئة الموقع، بَشعة المسمع، والبيت الثانى كان مخرجه أن يقول: واجْز الكرامةَ مَن ترى أن لو بذلتَ له يوماً كرامة لجزاكا» (العيار ٦٧ ـ ٦٨)، ومجمله استكراه تتابع حروف الصِّلات، والفصل بينها عند اجتماعها. ويقول فى بيت النابغة:

يُصَاحِبْنَهم حتى يُغِرْن مُغَارَهُم من الضَّاريات بالدِّماء الدَّوَارِب

يريد: «من الضاريات الدَّوَارب بالدماء». وإنما يقبح مثل هذا إذا التبس بما قبله، لأن الدماء جمع، والدَّوَارب جمع، ولو كان: من الضاريات بالدم الدَّوَارب لم يلتبس، وإن كانت هذه الكلمة حاجزة بين الكلمتين، أعنى بين الضاريات والدَّوَارب، اللتين يجب أن تقرنا معاً» (العيار ٦٨ ـ ٦٩)، فتأليف العبارة على نحو يُبين عن معناها مقصد ابن طباطبا، وهو ما شغله فى قول الفرزدق :

وما مثلُه فى الناس إلا مُمَلَّكا أبو أمه حيٌّ أبوه يقاربه

ووصفه بقوله: «فهذا من الكلام الغَثّ المُستَكْرَه الغَلِق، وكذلك ما تقدمه، فلا تجعلن هذا حُجّة، ولتجتنب ما أشبهه» (العيار ٧٢).

ففى هذا البيت من التقديم والتأخير ما قد أحال معناه وأفسد إعرابه، لأن مقصوده: (وما مثله فى الناس حَيّ يقاربه إلا مملكا أبو أمه وأبوه)، وقد نبه إلى ذلك ابن سنان الخفاجى (ت ٤٦٦هـ)، وفَصَّله باقتدار الإمام عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١هـ)[1].

وإن هذا النقد فى مجمله وتفصيله لا يقف عند اللفظ فى ذاته ودلالته المفردة بل ينظر إلى اللفظة وموقعها فى العبارة، من جهة ائتلافها مع ما قبلها وما بعدها فى أداء المعنى واضحاً بلاغموض أو مُعَاظَلة وتَعْمية، وتنسيق الألفاظ وفق قواعد النحو وأصول اللغة وأساليب البلغاء.

(١) انظر سر الفصاحة ١١١، دلائل الإعجاز ١٥ .

ثم استثنى ابن طباطبا القَصَّ والحكاية فى الشعر من المثالية فى تأليف العبارة وتنسيق ألفاظها، وفَرَّق بين تَحَكّم العبارة فى الشاعر وفرضها صياغتها على معاييره الأسلوبية، وبين امتلاك الشاعرحرية توجيه العبارة، وتصريف القول فيها، وفى ذلك يقول: «والذى يُحتمل فيه بعض هذا إذا ورد فى الشعر [يعنى اضطراب العبارة] وهو ما يضطر إليه الشاعر عند اقتصاص خبر، أو حكاية كلام إنْ أزيل عن جهته لم يَجُز، ولم يكن صدقاً، ولا يكون للشاعر معه اختيار، لأن الكلام يَمْلكه حينئذ فيحتاج إلى اتباعه والانقياد له، فأما ما يُمَكَّن الشاعر فيه من تصريف القول، وتهذيب الألفاظ واختصارها، وتسهيل مخارجها ـ فلا عذر له عند الإتيان بمثل ما وصفناه من هذه الأبيات المتقدمة» (العيار ٧٢). وتلك نظرة دقيقة فاحصة لا تتأتى إلا للناقد الأديب الذى يعرف مدارج القول ومسارب العبارة الشعرية أتيَّها وأبيَّها. فللخبر حكاية لا يجوز للشاعر تغييرها أو تبديل ألفاظها، وللقصة مَسْرد يأبى التقديم أو التأخير.

إلا أن ابن طباطبا ـ وهو بصدد التوجيه ـ لم يترك العبارة الشعرية تتمرد على حسن التأليف، أو تستعصى على الصياغة المُرْضية للمألوف فى أعراف البلغاء، فوجه للشاعر عند اقتصاصه الخبر إلى إختيار وزن يراه محتملاً للزيادة والنقص فيما بين يديه من الأخبار، دون إخلال أو تشويه حتى تستوى حكاية الخبر غير مستكْرَهة الألفاظ أو مضطربة التأليف. قال: «وعلى الشاعر إذا اضطر إلى اقتصاص خبر فى شعر دبَّره تدبيرا يسلس له معه القول، ويطرد فيه المعنى، فيبنى شعره على وزن يحتمل أن يُحْشَى بما يحتاج إلى اقتصاصه بزيادة من الكلام يُخْلط به أو نقص يُحْذف منه... وتكون الألفاظ المزيدة غير خارجة من جنس ما يقتضيه بل تكون مؤيدة له وزائدة فى رونقه وحسنه». (العيار ٧٢ ـ ٧٣).

وبهذا تبنى العبارة الشعرية بغيرحشو أو تطويل، ثم تستقيم صياغتها على الاستواء المعنوى بغير معاظلة، أو اضطرار حذف ما حقه الذِّكْر، أو تقديم ما يُفسد المعنى تقديمه، أو تأخير ما يُبهم ويغُم. وظاهر من هذا كله أن السيطرة

العقلية الـواعية على العبارة الشعريـة غالبة على الرأى النقدى عنـد ابن طباطبا، تحقيقاً للفهم الذى جعله عياراً للشعر، وحُسن التأليف الذى هو سَمْت القصيدة فى مبانيها ومعانيها.

الموضوع الرابع: عيار الشعر:

حاول ابن طباطبا وضع معيار للشعر تُعرف به مواطن الحُسن وسبل إدراكها. فعنده أن «عيار الشعر أن يُورَد على الفهم الثاقب، فما قبله واصطفاه فهو واف، وما مجّه ونفاه فهو ناقص» (العيار ١٩). ويقصد بالفهم الثاقب الوسيلة القادرة على التمييز بين الحَسَن والقبيح مـن الشعر، ونلمح تقارباً أو توافقاً بين رأى ابن طباطبا ورأى ابن سلام الـجُمَحِي فى طبقـاته الذى أقام من حُسْن العلم بالشعر معيـاراً للنقد، وعلـل ذلك بالعلل نـفسها التى سـاقها ابن طباطـبا للتأكيـد على أهمية الـفهم الثاقب فـى تقويم الشعر. فكـلا الرجلين فصل الـقول فى حواس الإنسان وما تـختص به كل حاسة فـتُقْبِل على ما يـلذّ لها وتألفه، وتُـعرض عما تَنْفر منه وتتأذّى بـه، ثم جعل ابن طباطبا الفهم الثاقب مخـتصا بالشعر، وخص ابن سـلام نقد الـشعر بـحسن تـعلمه وإجـادة علمـه عن طريـق كثرة المـدارسة ومداومة المعايـنة والاستماع[1]. والفرق بين الرجلين فيـما ذهبا إليه هو أن ابن طباطبـا حدد آلة النقد وهى الـفهم الثاقب. وابن سـلام عَيَّن السبل التـى تُهَيِّء للناقد شحذ فهمه، وإقداره على التمييز بين الحَسَن والقبيح.

ويزيدنا ابن طباطبـا بياناً لما يأنس له الفهم أو يستوحش مـنه فيقول: «والفهم يأنس مـن الكلام بالعـدل الصواب الحق، والجائـز المعروف المألوف، ويـتشوف إليه، ويتجلى لـه، ويستوحش من الكلام الجائر الخطأ الـباطل، والمُحَال المجهول المنكر، وينفر منه، ويصدأ له» (العيار ٢٠).

---

(١) انظر: طبقات الشعراء: ٢٧ .